ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم] قال (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) لأن مسألة الرزق هذه تحتاج إلى إيمان بحكمة الرازق سبحانه فى الإعطاء وفى المنع .

ونلحظ على أسلوب الآية قوله تعالى فى البسط : ﴿ لِمَن يَشَاءُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم] وفى التضييق ﴿ وَيَقْدِرُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم] ولم يقُلْ لمن يشاء ؛ لأن البسط فى نظرنا شيء محبوب نفرح له ونتمناه فقال ﴿ لِمَن يَشَاءُ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الروم] لنطمئن نحن إلى أننا سندخل فى هؤلاء الذين سيُبْسط لهم فى الرزق ، أما فى التقتير فلم يقُلْ (لمنْ) ليظل مبهماً يستبعده كلٌّ منّا عن نفسه .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

حينما نتأمل النسق القرآنى هنا نجد أن الله تعالى ذكر أولاً البسْطَ فى الرزق ، ثم التقتير فيه ، ثم أكّد بعده مباشرة على حَقِّ ذى القُرْبى والمسكين وابن السبيل ، وكأنه يلفت أنظارنا أن هذه الحقوق لا تقتصر على مَنْ بسط له الرزق ، إنما هى على الجميع حتى مَنْ كان فى خصاصة ، وضُيِّق عليه رزقه ، فلا ينسى هؤلاء .

لذلك يذيل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الروم] والجميع : مَنْ بُسط له ، ومَنْ قُتر عليه يريدون وجه الله .

وبمقارنة هذه الآية بآية الزكاة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ(١) وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾ [التوبة]

فلم تذكر ذا القربى الذى ذكر هنا ، وكأن الآية تشير لنا إلى أمر ينبغى أن نلتفت إليه ، وهو أن القريب عيب أن نعطيه من مال الزكاة ، وهذه آفة وقع فيها كثير من الأغنياء وحتى المتدينين منهم ، فكثيراً ما يسألون : لى ابن عم ، أو لى قريب أأعطيه شيئاً من زكاة مالى ؟

وكنتُ أقول للسائل : والله ، لو علم ابن عمك أنك تعطيه من مال الزكاة ما قبله منك ؛ لأن للقريب حقاً ، سواء أكنتَ غنياً تملك نصاب الزكاة ، أو لم تصل إلى حد النِّصَاب .

إذن : لا تربط هؤلاء الثلاثة ـ القريب والمسكين وابن السبيل ـ بمسألة الزكاة ، فلهم حَقٌّ حتى على الفقير الذى لا يملك نصاباً ، وعلى مَنْ ضُيِّق عليه رزقه .

ومع هذا الحق الذى قرره الشرع للقريب نجد كثيرين يأكلون حقوق الأقارب ، ويحتالون لحرمانهم منها ، فمثلاً بعض الناس لا ينجب ذكوراً ، فيكتب أملاكه للبنات ليحرم عمهم أو أبناء عمومتهم من الميراث ، مع أن البنت لها نصف التركة ، وإنْ كُنَّ أكثر من واحدة فلهُنَّ الثلثان ، ويُوزَّع الثلث على العم أو ابن العم ؛ ذلك لأن البنات فى هذه الحالة ليس لهن ذكَر عصبة ، فيجعلها الشرع فى العم أو ابن العم .

والشارع الحكيم يوازن بين الأطراف ، فيأخذ منك ويعطيك ،

(١) الغارمون : جمع غارم . والغارم : مَن لزمه دين بحق وبغير حق . والمغرم : الغرامة والدَّيْن الثقيل . [القاموس القويم ٢/٥٢] .

فلماذا فى حالة موت الوالد عن هؤلاء البنات ، وليس لهُنَّ ميراث يَعُدْن على العم أو ابن العم بالنفقة ويقاضونه فى المحاكم ، فلماذا نحرمهم حقوقهم ونطالب نحن بحقوقنا ، فهذا نوع من التغفيل .

لماذا لا نعطى العم أو ابن العم وهو الذى سيحمى البنات ويسهر على راحتهن ، ويقف بجوارهن حال شدتهن ؟

إياك - إذن - أنْ تُدخِل الأقارب فى الزكاة أو تربط مساعدتهم بالقدرة ؛ لأن لهم عليك حقاً حال رخائك وحال شدتك .

ويكفى أن الحق سبحانه خصَّهم بقوله ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ .. (٣٨)﴾ [الروم] ولم يقُلْ : ذا المسكنة ، أو ذا السبيل ، وكلمة (ذو) بمعنى صاحب ، تدل على المصاحبة الدائمة والملازمة ، فلا نقول : فلان ذو علم لمن علم قضية أو قضيتين ، إنما لمن اتصف بالعلم الواسع وتمكَّن منه ، كذلك لا نقول فلان ذو خلق إلا إذا كان الخُلُق صفة ملازمة له لا تنفك عنه .

ومن ذلك نقول : ذو القربى يعنى ملاصقاً لك لا ينفك عنك ، فيجب أنْ تراعى حقَّه عليك ، فتجعل له نصيباً ، حتى إنْ لم تكُنْ تملك نصاباً ، وكذلك للمسكين وابن السبيل ؛ لأن الله ذكرهم معاً فى غير بند الزكاة ، فدلَّ ذلك على أن لهم حقاً غير الزكاة الواجبة .

ونلحظ أن القرآن رتَّبهم حسب الأهمية والحاجة ، فأولهم القريب لقرابته الثابتة منك ، ثم المسكين وهو متوطن معروف لك ، ثم ابن السبيل العابر الذى تراه يوماً ولا تراه بعد ذلك ، فهو حسب موضعه من الحال .

والمسكين قد يتغير حاله ، ويتيسر له الرزق فيُوسِّع الله عليه ، وابن السبيل يعود إلى بلده ، فالوصف الثابت لذى القربى ؛ لذلك وصفه الله تعالى بما يدل على الثبات .

ثم قال ﴿ حَقَّهُ .. (٣٨) ﴾ [الروم] فالحق ملازم له وهو أَوْلَى به ، لذلك لم يَقُل مثلاً : وآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل حقوقهم .

وقد مثَّلوا لذلك بقولهم : قال الأمير : يدخل علىَّ فلان ، وفلان ، وفلان ، فالإذن بالدخول للأول يتبعه فى ذلك الباقون .

إذن : لهؤلاء الثلاثة خصوصية ، فقد أمرك الله أنْ تعطيهم من لحمك ، وألاَّ تربطهم بالزكاة ولا ببسط الرزق ، أما باقى السبعة المستحقون للزكاة فلم يُلزمك نحوهم بشىء غير الزكاة المفروضة .

ولما حدث نقاش بين العلماء حول المراد بالمسكين والفقير ، أيهما أحوج من الآخر ؟ قالوا : المسكين مَنْ له مال ، ولكن لا يكفيه[1] ، واستشهد أبو حنيفة على هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ .. (٧٩) ﴾ [الكهف] فأثبت لهم ملكية وسماهم مساكين . أما الفقير فهو الذى لا شىء له ، وعلى هذا فالفقير أحوج من المسكين ، فيدخل فى هذه الآية من باب أَوْلَى .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذى يطوف على الناس ، فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان . قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : الذى لا يجد غنىً يغنيه ، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٥٣٩) وكذا مسلم فى صحيحه (١٠٣٩) كتاب الزكاة ، واللفظ لمسلم .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ .. (٣٨) ﴾ [الروم] أى : الإيفاء لهؤلاء ﴿ خَيْرٌ .. (٣٨) ﴾ [الروم] كلمة خير تُطلَق فى اللغة ، ويُراد بها أحد معنيين : مرة نقول خير ويقابلها شر كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة] ، ومرة نقول : خير ونقصد الأخْير كالأحسن أى : أفعل تفضيل ، كما جاء فى قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيَارُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيَرِ

لكن الشائع أن تُستعمل خير فى أفعل التفضيل كقول النبى ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فخَيْر الأولى بمعنى أخير . لكن لمن ؟

﴿ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [الروم] أى : فى الوفاء بحقِّ ذى القربى والمسكين وابن السبيل ، يريد بذلك وجه الله ، لا يريد رياءً ولا سمعة ؛ لأن الذى يفعل خيراً يأخذ أجره ممَّن فعل من أجله ، فمَنْ عمل لله مخلصاً فأجره على الله ، ومَنْ عمل للناس رياءً وسمعةً فليأخذ أجره منهم .

وهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور] أى : فوجىء بوجود إله لم يكُنْ فى باله ولم يعمل من أجله .

فمعنى ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [الروم] أى : يقصدون بعملهم

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وابن ماجه فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وجه الله ، سواء رآه الناس ، أو أخفى عمله ، حتى لا تعلم شماله ما صنعتْ يمينه ؛ لأن الأمر قائم على النية ، فقد تعطى أمام الناس ونيتك أنْ يتأسَّوْا بك ، أو لتكُفَّ عنك ألسنتهم وقدحهم فى حقك .

وحين تعطى علانية بنية خالصة لله فإنها صدقة مخصَّبة للعطاء ، مخصِّبة للأجر ؛ لأنك ستكون أُسْوة لغيرك فيعطى ، ويكون لك من الأجر مثله ؛ لأن مَنْ سَنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة .

والقرآن الكريم عرض علينا هذه القضية فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

ثم يعطينا مثلاً توضيحياً : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

فمثَل المرائى كهذا الحجر الناعم الأملس حين يصيبه المطر ، وعليه طبقة من التراب يزيحها المطر ، ويبقى هو صلْداً ناعماً لا يحتفظ بشىء ، ولا ينبت عليه شىء .

وهذا المثَل يُجسِّد لنا خيبة سَعْى المرائى ، وأنه مغفل ، سعى واجتهد فانتفع الناس بسَعْيه ، وتعدَّى خيره إلى غيره ، وخرج هو خالى الوفاض من الخير ومن الثواب .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ

---

(١) الصفوان : الحجر الصلد الضخم الذى لا ينبت شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : صفا] والصلد : الأملس الذى لا يصلح للزرع . والوابل : المطر الغزير . [القاموس القويم للقرآن الكريم] .

مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)﴾ [البقرة]

فالصدقة ابتغاء وجه الله كالأرض الخصْبة حين ينزل عليها المطر ، فيأتى نباتها مضاعفاً مباركاً فيه ، فإنْ لم يكُنْ مطر كفاها الطَّل لتنبت وتُؤتى ثمارها ، ولو قال : كمثل جنة لكانت كافية لكنها ﴿جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. (٢٦٥)﴾ [البقرة] يعنى : على مكان مرتفع ليدلَّ على خصوبتها ، فكلما كانت الأرض مرتفعة زادتْ خصوبتها ، وخلَتْ من المياه الجوفية التى تؤثر على النبات .

وهذه الجنة تُرْوى بالمطر يأتيها من أعلى ، فيغسل الأوراق والغصون ، فتزيد نضارتها وجودتها ، والأوراق هى رئة النبات .

والله تعالى يترك لآثار الذات فى الناس تذكرةً وعبرة ، فواحد يفعل الخير بآخر ليشتريه به ، أو ليُخضع عنقه بهذا الجميل ، فتكون النتيجة الطبيعية أنْ ينكر الآخر جميله ، بل ويكرهه ويحقد عليه ، وهذا جزاء وفاقٌ لمن عمل العمل لغير وجه الله .

وهو معنى قولهم : اتَّق شر مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأنه حين يراك يتذكر ما لك من يَد عليه ، وما لك من فضل ، فيخزى ويشعر بالذلة ؛ لأن وجودك يدكُّ كبرياءه ؛ لذلك يكره وجودك ، ويكره أنْ يراك .

فالحق سبحانه يقول : احذروا أنْ تُبطلوا المعروف بالرياء ، أو بالأغراض الدنية ؛ لأن معروفك هذا سيُنكر ، وسينقلب ما قدمتَ من خير شراً عليك . إذن : عليكم بالنظر فى أعمالكم إلى وجه الله لا إلى غيره ، فإنْ حدث وأنكر جميلك فجزاؤك محفوظ عند الله ،

وكأن ربك - عز وجل - يغار عليك ، ويريد أنْ يحفظ لك الجميل ويدخره عنده .

وهذا المعنى عبَّر عنه الشاعر بقوله[1] :

أقُولُ لأصْحاب المرُوءَات قَولةً تُريحهُمُ إنْ أحسَنُوا وتفضَّلُوا
يَسيرُ ذوو الحَاجَات خَلْفَكَ خُضَّعاً فَإنْ أدْركُوها خلَّفوكَ وهَرْوَلُوا
فَلا تَدعِ المعْروفَ مهما تنكَّروا فَإنَّ ثوابَ الله أربى وأجْزَلُ

وسبق أنْ ذكرتُ قصة الرجل الذى قابلنا فى الطريق ونحن فى الجزائر ، فأشار لنا لنوصله فى طريقنا ، فتوقف صاحب السيارة وفتح له الباب ، لكنه قبل أنْ يركب قال (على كام) ؟ يعنى : ثمن توصيله . فقال صاحب السيارة : لله . فقال الرجل (غلَّتها يا شيخ) .

لذلك يقول بعض العارفين : إن الذين يريدون بأعمالهم وجه الله هم الذين يُغْلُون أعمالهم ، أى : يرفعون قيمتها ، ويضاعفون ثوابها .

وقوله تعالى : ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ .. (٣٨) ﴾ [الروم] بعد قوله : ﴿ وَيَقْدِرُ .. (٣٧) ﴾ [الروم] يدل فى ظاهره على أنه يأخذ منك مع أنك مُقلٌّ ، وهذا يدخل فى إطار قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ .. (٩) ﴾ [الحشر]

وقلنا : إن الشارع حكيم ، فإذا ألزمك وأخذ منك فإنما ذلك ليعطيك إنْ احتجتَ ، وكأنه يقول لك : اطمئن فقد أمَّنْتُ لك حياتك ، إن أصابك الفقر ، أو كنت فى يوم من الأيام مسكيناً أو ابن سبيل ، فكما فعلتَ سيُفعل بك .

وهذه المسألة واضحة فى كفالة اليتيم ، فلو أن المجتمع الإيمانى عوَّضه عن أبيه عملاً بقول النبى ﷺ : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى

---

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

الجنة»[1] لاطمأنَّ كلُّ أب على أولاده إنْ مات وتركهم : لأنهم فى مجتمع يُعوِّضهم عن أبيهم بآباء كثيرين .

والإنسان إنْ كان آمناً مُنعَّماً ، فإنما يُنغِّص هذه النعمة أنها عُرْضة لأنْ تزول ، فيريد الله أنْ يُؤمِّن لعبده الحياة الكريمة فى امتداده من بعده ، وهذا هو التأمين الحق الذى أرسله الله قضية تأمينية فى الكون ، ليست فى شركات التأمين ، إنما فى يده سبحانه حيث قال :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ⑨ ﴾ [النساء] فإذا اتقوا الله وقالوا القول السديد ، فإن يتيمهم يصادف أناساً يكفلونه ، ويخافون عليه ، ويتولَّوْن أمره .

وسبق أنْ تعرَّضْنا فى سورة الكهف لقصة الجدار الذى تبرع الخضر - عليه السلام - ببنائه مع أنه فى قرية أهلها لئام[2] منعوهم حتى الطعام . وقلنا : إن سؤال الطعام هو أصدق سؤال ، ولا يُردُّ سائله ، ومع ذلك بناه الخضر ، وقال فى بيان أمر الجدار : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا .. ⑧٢ ﴾ [الكهف]

فصلاح الأبويْن ينفع الغلامين ، فيُسخِّر الله لهما مَنْ يبنى لهما الجدار ، ويحافظ لهما على كنزهما حتى يكبرا ، ويستطيعا حمايته من

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٠٠٥) من حديث سهل بن سعد ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٨٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وتمام الحديث : « وقال بإصبعيه السبابة والوسطى » ومعنى السبابة : لأنها يسب بها الشيطان حينئذ . وفى رواية « السبَّاحة » لأنها يُسبح بها فى الصلاة فيشار بها فى التشهد لذلك . قاله ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى (١٠/٤٣٦) .

(٢) اللئام : جمع لئيم ، وهو الدَّنِىء الأصل الشحيح النفس . [لسان العرب - مادة : لأم] .

هؤلاء اللئام الذين إذا علموا بأمره نهبوه من هذيْن الصغيريْن .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن الفارق بين الهدية والصدقة ، فيقول:

﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا(١) لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾

الحق - سبحانه وتعالى - يعرف أن خَلْقه يفعلون الخير ، ويطلبون الأجر عليه ، لكن هذا الطلب قد يضيع إذا راءوا فى أعمالهم ، وقد يكون الأجر على قدر العمل إذا خلا من الرياء ، لكن الحق سبحانه يريد أن يرتفع بالصدقة أو بالزكاة إلى مستوى عَالٍ ، فيأخذ صاحبها الثمن من يد الله سبحانه مضاعفاً ، وطلب الزيادات يكون فى النية .

فالمؤمن مثلاً يعلم أنه إذا حُيِّيَ بتحية فعليه أنْ يردَّها بخير منها ، فقد يأتى فقير ويقدم لأحد الأغنياء هدية على قدر استطاعته ، وفى نيته أنْ يردَّها الغنى بما يناسب غنَاه ، إذن : فهو حين أعطى يطمع فى الزيادة ، وإن كانت غير مشروطة ، ويجوز أنْ يردَّ الغنىُّ على الهدية بأفضل منها ، ويجوز ألاَّ يردَّها أصلاً .

فقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا .. (٣٩) ﴾ [الروم] أى : الزيادة

---

(١) قال ابن عباس فى هذه الآية : « الربا رباءان ، ربا لا بأس به ، وربا لا يصلح . فأما الربا الذى لا بأس به فهدية الرجل إلى الرجل يريد فضلها أو أضعافها » . [أخرجه ابن أبى حاتم] وفى قول آخر له قال : هو ما يُعطى الناس بعضهم بعضاً ، يعطى الرجلُ الرجلَ العطية يريد أن يعطى أكثر منها . [أخرجه ابن جرير الطبرى] أورد السيوطى هذين الأثرين فى الدر المنثور ٦/٤٩٥ .

بأىِّ ألوانها عما تعطى ، وهذه الزيادة غير مشروطة فى عقد ، والزيادة تكون فى المال ، أو بأىِّ وسيلة أخرى فيها نفع ؛ لأنهم قالوا فى تعريف الربا : كل قرض جَرَّ نفعاً فهو ربا[1] .

حتى أن الإمام أبا حنيفة كان يجلس فى ظل جدار لجاره ، فلما طلب منه جاره مالاً وأقرضه رآه الجار لا يجلس فى ظل الجدار كما كان يجلس ، فسأله عن ذلك فقال : كنت أجلس فى ظل جدارك وأعلم أنه تفضّل منك ، أما الآن فأخاف أنْ أجلس فيه حتى لا تظن أن هذه الجلسة للمالِ الذى أخذتَه منى .

فالمعنى : وما آتيتم من ربا تبغون به الزيادة سواء أكانتْ نفعاً ، أو مالاً ، أو غير مال ، سواء أكانت مشروطة أو غير مشروطة . قالوا : فما حكم الهدايا إنْ رُدَّتْ بأحسن منها ؟ وما ذنبى أنا المعطى فى ذلك ؟ قالوا : لا شىء فيها بشرط ألاَّ تكون فى نيتك الزيادة ، وألا تكون هديتك مشروطة ، إنما تكون تحبباً وتودداً ومعروفاً بين الناس ، إنما لا تأخذ عليها ثواباً من الله .

وقوله ﴿ لِّيَرْبُوَ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ .. (٣٩) ﴾ [الروم] فى هنا للظرفية ، فالمال ظرف ، وما تضعه فيه ينقص منه ، ويزيد ما عندك ﴿ فَلاَ يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الروم] يربو عندك أنت بالزيادة التى تأخذها ممَّنْ حيَّيْته ، أمّا عند الله فلا يربو .

---

(١) قال الشوكانى فى نيل الأوطار (٥/٢٣٢) : « مما يدل على عدم حل القرض الذى يجر إلى المقرض نفعاً ما أخرجه البيهقى فى المعرفة عن فضالة بن عبيد موقوفاً بلفظ « كل قرض جر منفعة فهو وجه من وجوه الربا » ورواه فى السنن الكبرى عن ابن مسعود وأبىّ ابن كعب وعبد الله بن سلام وابن عباس موقوفاً عليهم . ورواه الحارث بن أبى أسامة من حديث على عليه السلام بلفظ « إن النبى ﷺ نهى عن قرض جر منفعة » وفى رواية « كل قرض جر منفعة فهو ربا » وفى إسناده سوار بن مصعب وهو متروك . قال عمر بن زيد فى المغنى : لم يصح فيه شىء .

هكذا قال ابن عباس[1] ، وإن كان بعض العلماء قال : هي مطلق في الربا الأصل ، وهذه مسألة كان يجب أنْ يُشرّع لها ، لكن رأى ابن عباس أن آية الربا معروفة ، وهذه للربا في زيادات التحية والمجاملات بين الناس .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ .. (٣٩)﴾ [الروم] أي : الذين يُؤتون الزكاة ويريدون بها وجه الله ﴿هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم] ليست من الإضعاف ، إنما من الأضعاف ، فالزكاة أضعاف بالفتح كما في قوله تعالى : ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] أما الربا فإضعاف بالكسر .

وهذه المسألة وقف عندها بعض المستشرقين الذين يحبون أنْ يستدركوا على كلام الله ، قالوا : في القرآن آيات تصادم الحديث النبوي ، فالقرآن يقول : ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد]

إذن : القرض الحسن يضاعف به الله الثواب ، وعندكم أن الحسنة بعشر أمثالها . وقال النبي ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الحسنة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[2] فلو أن القرض الحسن يضاعف الحسنة بعشر أمثالها ، فهو بعشرين لا بثمانية عشر .

---

(١) قال ابن عباس وابن جبير وطاوس ومجاهد : هذه آية نزلت في هبة الثواب . قال ابن عطية : وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه كالسلام وغيره فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تعالى . ذكره القرطبي في تفسيره (٥٢٩٣/٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في مسنده (٢٤٣١) من حديث أنس بن مالك قال قال ﷺ « رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوبا : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر . فقلت : يا جبريل ، ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » .

فقلنا له : لو تصدقْتَ بدولار مثلاً فقد عملتَ حسنة تُضاعف لك إلى عشر ، لكن أردُّ إليك دولارك الذى تصدَّقْتَ به ؟ لا ، إذن حقيقة الأمر أنك أخذتَ تسعة تضاعف إلى ثمانية عشر .

قالوا : فلماذا زاد ثواب القرض ؟ نقول : لأن المتصدِّق حين يتصدق ينقطع أمله فيما قدَّم ، لكن المقرض لا يزال مُعلَّق البال فى القرض ينتظر ردّه ، فكلما صبر عليه أخذ أجراً ، ثم إن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، أما المتصدَّق عليه فقد يقبل الصدقة وهو غير محتاج إليها ، وربما كان ممَّنْ يكنزون المال .

إذن : فالحق سبحانه يريد أنْ يُنمى القرض لماذا ؟ قالوا : لأن الله يريد أن تسير حركة الحياة ، وأنْ تتكامل ، وأنت تعتز بمالك وتخاف عليه وتريد له النماء ، وسوف تجد هذا كله فى القرض ، فاجعله قرضاً ، فهو الباب الذى فتحه الله لك للزيادة وللثواب .

ثم إن الله تعالى احترم ملكيتك لمالك ، وحرص على حمايته لك ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ .. ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة]

فالله يحفظ عليك مالك لتهدأ بالاً من ناحيته ، ومع ذلك يترك مجالاً لأريحية المعطي ومروءته ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. ﴿٢٨٣﴾ ﴾ [البقرة]

وبهذه الفلسفة الإيمانية يدور المال وتسير به حركة الحياة ، بحيث يضمن لصاحب المال ماله ، لأنه مُحبٌّ له حريص عليه ، ويضمن لمن لا مالَ له أنْ يتحرك من مال الغير ، فإذا كانت هناك أمانة أداء ، فكل صاحب أمانة عليه أنْ يؤدِّيها لمستحقها .

فإن اختلت هذه الموازين ، وماطل الفقيرُ الغنيَّ ، وضنَّ عليه أنْ

يردَّ إليه حقه ، فقد فسد حال المجتمع وانهارت فيه هذه القيم ، وساعتها لا نلوم القادر على العطاء إنْ أمسك ماله عن المحتاجين للقرض ولمَ لا ؟ والناس يأكلون الحقوق ، وبذلك تتوقف حركة الحياة ويتراجع المجتمع عن مسايرة حركة التقدم .

فإذا كان الربا غير المشروط ، وهو الربا فى الهدايا والمجاملات والتحية بين الناس جعله الله للمودَّات وللمروءات بين الناس ، لا يثيب عليه ولا يعاقب ، وقال عنه ﴿فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ.. (٣٩)﴾ [الروم]

أما الربا المشروط فقد وقف معه وقفة حازمة ، وشرع له عقاباً ، وجعل هذا العقاب من جنس ما يضادّ غرض الذى رابَى ، فأنت ترابى لتزيد من مالك ، فيقابلك الله بالنقصان ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا .. (٢٧٦)﴾ [البقرة] لماذا ؟

قالوا : لأن المعطى غنىٌّ واجد ، لديه فائض من المال يعطى منه ، أما الآخذ فمحتاج ، فكيف نطلب من المحتاج أنْ يزيد فى مال الواجد غير المحتاج ؟ وكيف تكون نظرة المحتاج إليك حين يعلم أن عندك مالاً يزيد عن حاجتك ، ومع ذلك ترفض أن تُقرضه القرض الحسن ، بل تشترط عليه الزيادة ، فتأخذ الزيادة منه وهو محتاج ؟

ثم افرض أننى أخذت هذا القرض لأثمره وأنميه فخسر ، أليس كافياً أنْ أخسر أنا عملى ، وأنْ يضيع مجهودى ؟ أمن العدل أن أخسر عملى ، ثم أكون ضامناً للزيادة أيضاً ؟ هذه ليست من العدالة ؛ لأن شرط العقد أن يحمى مصلحة الطرفين ، أما عقد الربا فلا يحمى إلا مصلحة الدائن .

ونحن نرى حتى التشريعات الوضعية فى الاقتصاد إذا أعطى البنك مالاً لشخص لعمل مشروع مثلاً ثم خسر وأرادوا تسوية حالته ،

أول شيء في إجراءاتهم أنْ يُسقطوا عنه الفوائد .

وهذا يوافق شرع الله في قوله تعالى : ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾ [البقرة] (لا تُظلمون) بمعنى : أن نردَّ إليكم رءوس أموالكم ؛ (ولا تظلمون) أي : لا نظلمك من ناحية أخرى ، فنقول لك :

إنْ أردتَ أنْ تتوب فرُدَّ ما أخذتَه بالربا بأثر رجعي ؛ لأن ما أخذتَه قد صُرِف وتصعب إعادته ، وبذلك نراعي مصلحة الدائن حين نعيد إليه رأس المال ، ومصلحة المدين ، فلا نكلفه ردَّ ما لا يقدر على ردِّه .

وحين نتأمل هذه المسألة : آلدول أقوى أم الأفراد ؟ الدول ، أرأيتم دولة اقترضتْ مالاً من دولة أخرى ، ثم استطاعت أن تُسدِّد فوائد هذا الدين فضلاً عن أصل الدَّيْن ؟ كذلك الأفراد الأقوياء الذين يأخذون القروض ، ثم لا يسددون مجرد الفوائد ، ولا يستطيعون جدولتها ولا تسوية حالتهم ، فيقعون في خصومات ومشاكل .

شيء آخر ، هَبْ أن رجلاً لديه مثلاً ألف جنيه ورجل لا عند له ، صاحب الألف يستطيع أن يديرها ، وأن يعيش منها ، أما الآخر الذي لا يملك شيئاً فيقترض ليعيش مثل صاحبه ، فإنْ قلت له : الألف قرضاً بمائة جنيه ، فمن أين يوفر هذه المائة ؟

إنْ أخذها من عائد المال يخسر ، وإنْ أخذها من السلعة بأنْ يُقلل من الجودة أو من العناصر الفعالة في السلعة ، أو في التغليف ، جاءت السلعة أقلَّ من مثيلاتها وبارت . إذن : لابد أن يتحملها المستهلك ، وهذا إضرار به ، وهو ليس طرفاً في العقد ، إذن : العقد باطل .

وحين نقول : إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان يجب أن نفهم هذه القضية جيداً ، وإياك أن تقول : إن الإسلام لا يصلح فى زمان كذا ، أو فى مكان كذا .

والآن نسمع البعض ينصرف عن منهج الإسلام ويقول لك ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا .. (٢٨٦) ﴾ [البقرة] أى : ليس فى وُسْعه الآن تنفيذ شرع الله . لكن نقول له : مَن الذى يحدد الوُسْع ؟ أنت أم المشرِّع سبحانه ؟

ما دام الله تعالى قد كلَّف ، فاعلم أن التكليف فى وُسْعك ، فخذ الوُسْع من التكليف ، لا أن تُقدِّر أنت الوسع وتنسى ما كلَّفك الله به . لذلك ترى أن الله تعالى إذا ضاق الوُسْع يُخفِّف عنك دون أنْ تطلب أنت التخفيف ، كما فى صلاة وصوم المريض والمسافر .. الخ وكما فى التيمم إنْ تعذَّر استعمال الماء .

فلا معنى لأن نقول : إن تعاليم الدين لا تناسب العصر ، إذن : اجعل العصر هو المشرِّع ، وانصرف عن تشريع السماء إلى ما يحتمله العصر .

لذلك قلنا : إن الحق سبحانه حينما يلقى تكاليفه يقول : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فمعنى تعالوا : ارتفعوا عن مستوى أهواء البشر ، واعلوا إلى تكاليف الله ، فإنْ هبطت بالتكاليف إلى مستواك ، وقُلْت ظروف العصر تحتم علىَّ كذا وكذا فقد أخضعتَ منطق السماء لمنطق الأرض ، وما جاء منطق السماء إلا ليعلو بك .

فإنْ نظرنا إلى مواقف العلماء من مسألة الربا ، فمنهم مَنْ يُحلِّل ، ومنهم مَنْ يُحرِّم وهم الكثرة ، وهَبْ أنهم متساوون مَنْ يحرم ومَنْ يحلل ، فما حكم الله فيما تساوتْ فيه الاجتهادات ؟

النبى ﷺ أوضح لنا هذه القضية فى قوله : « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرْضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمىً ، ألا وإن حمى الله محارمه »[1] .

فهل قال رسول الله : فمَنْ فعل الشبهات أم : فمَنْ ترك الشبهات ؟ إذن : مَنْ وقع فى الشبهات لم يستبرىء ، لا لدينه ولا لعِرْضه ، وهل يرضى أحد أنْ يُوصَف هذا الوصف ؟ وعجيب أن نسمع مَنْ يقول : وما علاقة العِرْض بهذه المسألة ؟ نقول : والله حتى غير المؤمن بدين يستنكف أن يقال عنه أنه مُرابٍ ، عِرْضه لا يقبلها فضلاً عن دينه .

لذلك ؛ فالمكارون الذين يريدون أن يُغلوها ، ويريدون أن يعيشوا على دماء الناس لا يدرون أن النفعية هى القانون الذى يحكم الله به خَلْقه ، فيجعل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، لذلك يقول اليهود : كيف تُحرِّمون الربا والله يعاملكم به ؟

نعم ، الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعاملنا بالربا ، ويعطينا بالزيادة ؛ لأن هذه الزيادة لا تُنقص مما عنده سبحانه ، أمَّا الزيادة من الناس ومن المحتاجين فإنها ترهقهم وتزيدهم فقراً وحاجة .

ثم دَعْكَ من هذا كله ، وتأمل فى المحيط الذى تعيش فيه ، ففى كل بلد أناس يحبون الربا ويتعاملون به ، أرأيتم مرابياً مات بخير ؟ أمات مرابٍ وثروته كاملة ؟ لا ، لأن الله تعالى لم يكن ليقول ﴿ يمحق

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

اللَّهُ الرِّبَا .. (٢٧٦)﴾ [البقرة] ثم يترك مرابياً ينمو ماله ، ويسلم له إلى أنْ يموت ، فإن اغتنى لحين ، فإنما غنَاه كيد فيه ، ومبالغة فى إيذائه ، كما جاء فى الأثر « إذا غضِب الله على إنسان رزقه من الحرام ، فإن اشتد غضبه عليه بارك له فيه » .

واقرأ قول الله تعالى :

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤)﴾ [الأنعام]

لذلك نسمع « فلان ماهر فى التجارة » ، « فلان يضع يده فى التراب يصير ذهباً » ... الخ .

وسبق أن أوضحنا الفرق بين « فتحنا لهم » و « فتحنا عليهم » : « لهم » أى لصالحهم بالخير ، أما « عليهم » فيعنى كيداً لهم وتحدياً وإهلاكاً ، فالله تعالى يعطى الكافر ويُوسِّع عليه زهرة الدنيا ، حتى إذا أخذه كان أَخْذه أليماً ، كما قلنا : إنك إنْ أردت أنَ تُوقِع عدوك لا توقعه من على الحصير ، إنما من مكان عالٍ حتى يكون السقوط مؤلماً .

وقوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا .. (٤٤)﴾ [الأنعام] والفرح بالنعمة ليس ممنوعاً ، لكن هناك فرح يُحب ، وفرح يُكره ، وإلاَّ فالحق سبحانه نسب الفرح للمؤمنين فى قوله تعالى فى سورة الروم : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم] وقال سبحانه : ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ .. (١٧٠)﴾ [آل عمران] وقال : ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨)﴾ [يونس]

فأثبت لهم الفرح المقبول ، وهو الفرح الذى يعقبه قولنا : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ثم تشكر الله الذى أنعم عليك ، أما الفرح المكروه فهو الفرح الذى يُورِثك بَطَراً وأَشَراً وكبراً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

سبق أنْ قلنا : إن قضية الخَلْق مُسلَّم بها ؛ لأنها قضية لم يدَّعها أحد لنفسه مع كثرة المتبجحين بالكفر والإلحاد ؛ لذلك لما ادَّعاها النمروذ الذى حاجَّ إبراهيم فى ربه فقال : أنا أحيى وأميت ، فعلم إبراهيم عليه السلام أنه يريد اللجاج والسفسطة التى لا طائل منها ، وإلا فكيف يكون الأمر بقتل واحد إماتة ، والأمر بترك الآخر والعفو عنه إحياء ؟

ثم ما بال الذين خُلقوا قبلك وميلادهم قبل ميلادك ؟ إذن : أنت لم تخلق ولم تُحى أحداً ، وسبق أنْ بيَّنا الفرق بين القتل والموت مع أنهما يشتركان فى إنهاء الحياة وإزهاق الروح ، لكن الموت يكون بإزهاق الروح أولاً ، يتبعه نَقْض البنية وتحطم الجسم .

أما القتل فينقض البنية أولاً نَقْضاً يترتب عليه إزهاق الروح فالروح لا تقيم إلا فى بنية سليمة ، ومثَّلنا لذلك بلمبة الكهرباء حين تحرق فينطفىء نورها ، فهل يعنى ذلك أن التيار انقطع عنها ؟ لا بل هو موجود لكنه يحتاج لبنية سليمة بدليل أننا إذا استبدلنا اللمبة تضىء .

والحق - سبحانه وتعالى - يبين لنا هذا الفرق فى قوله سبحانه :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. (١٤٤) ﴾ [آل عمران] إذن : فالنمروذ لا يحيى ، بل يُبقى على الحياة ، ولا يُميت بل يقتل ويُزهق الروح .

وكان بمقدور إبراهيم عليه السلام أنْ يردَّ عليه هذه الحجة ، وأنْ يكشف تزييفه ، لكنه أراد أن يأخذه إلى ميدان آخر لا يستطيع التلفيق فيه ولا التمحُّك ، فقال له : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة]

كذلك مسألة الرزق فهى مُسلَّمة لله لم يدَّعها أحد : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الروم]

بدليل أن الله تعالى جعل بعض المناطق جدباء ، يجوع فيها القادر والعاجز ، ويجوع فيها ذو المال وغير ذى المال ، ولو كان هناك رازق غير الله فَلْيُحى هذه المناطق الجدباء .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .. (٤٠) ﴾ [الروم] ولم يقل : يقتلكم ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ .. (٤٠) ﴾ [الروم] أى : اسألهم هذا السؤال ، ودَعْهم يجيبون هم عليه : أتستطيع الأصنام التى تشركونها مع الله أنْ تفعل شيئاً من الخَلْق أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة ؟

أفى قدرتها شيء من ذلك وأنتم الذين تصنعونها وتنحتون حجارتها بأيديكم ، وتُصوِّرونها كما تشاؤون ، فإذا هبَّتْ عاصفة أطاحت بها وربما كسرت ذراع أحد الأصنام فتجتمعون لإقامتها وإصلاحها ؟ فأين عقولكم ؟ وما هذه الخيبة التى أصابتكم ؟

لذلك يقول سبحانه عنهم : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) ﴾ [النحل]

ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج] بل وأكثر من ذلك ﴿ إِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

بالله ، أيستطيع أحد أنْ يستردَّ ما أخذتْه منه الذبابة ؟

ونلحظ فى الآية تكرار (مِنْ) وهى للتبعيض : ﴿ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ .. (٤٠) ﴾ [الروم] والمعنى : لا يستطيع أحد من شركائكم أن يفعل شيئاً ولو هيِّناً من الخلق ، أو الرزق ، أو الإحياء ، أو الإماتة .

لذلك يجب أنْ تُعلِّقوا على هذه القضايا من الله بقول واحد ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾ [الروم] لا تعليق إلا هذا .

لذلك لما تكلم سيدنا إبراهيم عن الأصنام قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ ..(٧٧) ﴾ [الشعراء] أى : أنتم وما تعبدون من دون الله ؛ لأنهم كانوا يشركون آلهتهم مع الله ، فالله سبحانه داخل فى هذه الشركة ؛ لذلك استثناه ربه ﴿ إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾ [الشعراء]

وتلحظ هنا فى قوله ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي .. (٧٨) ﴾ [الشعراء] أنه لم يؤكدها بشيء ، ولم يذكر قبل الخَلْق الضمير (هو) ؛ لأن مسألة الخَلْق كما قُلْنا لم يدَّعها أحد ، أمّا فى الهداية وهى مجال ادعاء ، فقال (فهو) أى : الحق سبحانه يقصر الهداية على الله ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) ﴾ [الشعراء]

وفى هذا إشارة إلى أن القانون الذى يُنظم حياتى والمنهج الذى يهدينى قانون ربى لا آخذه من أحد سواه ، وكثيراً ما نرى مَنْ يدَّعى الهداية ويقول : إننى وضعتُ قانوناً يُسعِد حياة الناس ، ويفعل كذا

وكذا ، سمعنا هذه النغمة مرة من الرأسمالية ، ومرة من الاشتراكية ومن الشيوعية .. الخ .

إذن : هذا مجال ادعاء واسع ، فقيَّده إبراهيم - عليه السلام - وقصره على الله ، حيث لا منهجَ إلا منهجُ الله ، ولا قانونَ يحكمنا إلا قانون ربنا ، كما نقول فى العامية (مفيش إلا هو) .

كذلك فى مسألة الإطعام قال : ﴿ وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى .. (٧٩) ﴾ [الشعراء] فاستخدم القصر هنا بذكر الاسم الموصول (الذى) ثم الضمير المفرد الغائب (هو) ؛ ليؤكد أن الذى يطعمه إنما هو الله ؛ لأن الإنسان قد يظن أن أباه هو الذى يطعمه ، أو أن أمه هى التى تُطعمه ؛ لأنها تُعد له طعامه ، فهما السببان الظاهران فى هذه المسألة ، فاحتاج الأمر إلى أكثر من مؤكد .

ثم يقول عليه السلام : ﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء] هكذا دون توكيد ؛ لأن الموت والحياة مسألتان مُسلَّمتان لله مفروغ منهما ، وكذلك : ﴿ الَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ [الشعراء] وهذه أيضاً لا تكون إلا لله تعالى .

إذن : ما كان للغير فيه شبهة عمل يؤكدها ويخصُّها لله تعالى ، أما الأخرى التى لا دخْلَ لغير الله فيها فيسوقها مُطْلقة دون اختصاص .

فالتعليق فى هذا الأمر العجيب لا يكون إلا بقولنا : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) ﴾ [الروم] أى : تنزيهاً له عن الشركة . وإذا كان رسول الله ﷺ قد أخبرنا أن الله تعالى قال : لا إله إلا أنا ، ولم يَقُمْ لهذه القضية منازع ، ولم يدَّعها أحد لنفسه .

إذن : فهى مُسلَّمٌ بها ، وإلا فإنْ كان هناك إله آخر فأين هو ؟ ولماذا لم يدافع عن حقه فى الألوهية ؟ إن كان لا يدرى فهو غافل ، وإنْ كان يدرى ولم يعارض فهو جبان ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح أن يكون إلهاً .

لذلك ربنا حكمها بقضية واحدة ، فقال : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) ﴾

ظهر : بان ووضح . والظهور : أن يَبين شيء موجود بالفعل لكنَّا لا نراه ، وما دام الحق سبحانه قال : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١) ﴾ [الروم] فلا بُدَّ أن الفساد كان موجوداً ، لكن أصحاب الفساد عمُّوه وجنُّوه إلى أن فقس وفرخ فى المجتمع .

والفساد لا يظهر إنما يظهر أثره ، أتذكرون الزلزال الذى حدث والذى كشف الفساد والغش والتدليس بين المقاول والمهندس ، وكانت المبانى قائمة والفساد مستتراً إما لغفلتنا عنه ، أو لتواطئنا معه ، أو لعدم اهتمامنا بالأشياء إلى أن طمَّتْ المسائل ، ففضح الله الأرض بالزلزال ، ليكشف ما عندنا من فساد .

فإذا ازداد الغش ، وانتشر وفَاقَ الاحتمال لا بُدَّ أن يُظهره الله للناس ، فلم يَعُدْ أحد قادراً على أن يقف فى وجه الفساد ، أو يمنعه ؛ لذلك يتدخَّل الحق سبحانه ، ويفضح أهل الفساد ويذيقهم آثار ما عملت أيديهم .

وتأتى ظهر بمعنى « الغلبة » كما فى قوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ

آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾ [الصف] أى: غالبين . وفى سورة التحريم : ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ .. (٤)﴾ [التحريم]

وبمعنى « العلو » فى قوله تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧)﴾ [الكهف]

فالمعنى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] أى : غلب الصلاح وعلا عليه ، والكون خلقه الله تعالى على هيئة الصلاح ، وأعدَّه لاستقبال الإنسان إعداداً رائعاً ، وللتأكد من صدْق هذه المسألة انظر فى الكون وأجناسه وأفلاكه وأجوائه ، فلن ترى فساداً إلا فيما تتناوله يد الإنسان .

أما ما لا تتناوله يد الإنسان ، فلا ترى فيه خللاً ؛ لأن الله خلقه منسجمَ الأجناس منسجمَ التكوين : ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس]

فهل خلقنا الحق سبحانه وخلق اختيارنا لنفسد فى الكون ؟

لا ، إنما هو ابتلاء الاختيار حين ينزل عليك المنهج ويجعله قانوناً لحركتك بافعل ولا تفعل ، وما لم أقُل فيه (افعل) أو (لا تفعل) فأنت حر فيه ، فلا يحدث من الفعل أو من عدمه ضرر فى الكون ، أمّا أنا فقد قلت افعل فى الذى يحصل منه ضرر بعدم فعله ، وقلت لا تفعل فى الذى يحصل ضرر من فعله .

فالفساد يأتى حين تُدخل يدك فى شىء وأنت تطرح قانون الله فى افعل ولا تفعل ، أما الصلاح فموجود وفيه مناعة يكافح بها الفساد ، فإنْ علا تيار الفساد وظهر على الصلاح وغلبه بان للناس .

وعندها يُنبِّهنا الحق سبحانه بالأحداث تطرقنا وتقول لنا : انظروا إلى مَنْ خالف منهج الله ماذا حدث له ؛ لذلك في أعقاب الأحداث نزداد عشقاً لله ، وحباً لطاعته ، وترى الناس (تمشي على العجين متلخبطه) ، لكن سرعان ما يعودون إلى ما كانوا عليه من الإهمال والغفلة ، على حَدِّ قول الشاعر :

تُروِّعنا الجنائزُ مُقْبِلاتٍ ... ونلهُو حين تَذهَبُ مُدبراتِ

كَروْعَةِ ثُلَّةٍ لمغَارِ ذئْبٍ ... فَلما غابَ عادتْ راتعاتِ

فالحق يقول : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] أي : غلب على قانون الصلاح الذي أقام الله عليه نظام هذا الكون ، الذي لو نالتْه يد الإنسان لَفسد هو الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١)﴾ [المؤمنون]

فظواهر الكون أشياء وقضايا لكل العامة ، ومن الحكمة ألاَّ تنالها يد الإنسان ؛ لأن الله تعالى يريد للكون البقاء ، ولم يأْتِ أوان انتهائه ، لذلك الحق سبحانه يجعل فينا مناعة تجعلنا نقبل الفساد إلى حين ، إلى أن يصل إلى درجة التشبُّع ، فتتفجر الأوضاع .

فقوله : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ .. (٤١)﴾ [الروم] نتيجة لدعوته ﷺ ؛ لأن كلمة (ظهر) تدل على أن شيئاً وقع ، فكأنه يقول لنا : إنْ كررتم الفساد والغفلة تكرَّر ظهور الفساد ، فهو يعطينا مُلخصاً لما حدث بالفعل من عداوتهم لرسول الله ، ومقاطعته وعزله وإغراء السفهاء منهم للتحرش به ، ثم عداوة أصحابه وإجبارهم على الهجرة إلى الحبشة حتى لا يستقر لهم قرار بمكة .

لذلك دعا عليهم رسول الله : « اللهم اشْدُد وطأتك على مُضَر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »(١) فأصابهم الجَدْب والقحط ، حتى رُوِى أنهم كانوا يذهبون للبحر لصيد السمك ، فيبتعد عنهم ولا يستقيم لهم فيعودون كما أتوا .

وهذا معنى ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. (٤١) ﴾ [الروم]

ثم يوضح الحق سبحانه سبب هذا الفساد : ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ .. (٤١) ﴾ [الروم] فتلحظ هنا أن الحق سبحانه لما يذكر الرحمة لا يذكر علَّتها ، لكن يذكر علَّة الفساد ؛ لأن الرحمة من الله سبحانه أولاً وأخيراً تفضُّل ، أما الأخذ والعذاب فَبعدله تعالى ؛ لذلك يُبيِّن لك أنك فعلتَ كذا ، وتستحق كذا ، فالعلَّة واضحة .

هناك قضية أخرى أحب أن أوضحها لكم ، وهى أن الحق سبحانه يعامل خَلْقه معاملته فى الجزاء ، فالله يقول : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠) ﴾ [الأنعام]

إذن : فالحسنة الواحدة تستر عشر سيئات ، وكذلك فى جسم الإنسان ، فيقول بعض علماء وظائف الأعضاء والتشريح : إن الكلية بها مليون خلية يعمل منها العُشْر بالتبادل ، فمجموعة تعمل ، والباقى يرتاح وهكذا . فانظر كم ترتاح الخلية حتى يأتى عليها الدور فى العمل .

فكأن ربنا - سبحانه وتعالى - خلق لها العشر يقوم مقام المليون ؛ لذلك قالوا لو أن فى أحد الدواوين عشرة موظفين ، منهم

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) . وكذا البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » .

واحد محسن ، يستر إساءة الباقين ، وكثيراً ما تلاحظ هذه الظاهرة في دواوين الحكومة ، فترى غالبية الموظفين منشغلين : هذا يقرأ الجرائد ، وهذا يشرب الشاى ، وآخر لم يأتِ أصلاً .

وخلف كومة من الملفات تجد موظفاً نحيلاً غارقاً في العمل ، يقصده الجميع ، ويتحمل هو تقصير الآخرين ، ويؤدى عنهم ، وبه تسير دفَّة الأمور ، لكن إنْ فقدنا هذا أيضاً ، فلا بُدَّ أن تأتى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١)﴾ [الروم] إذن : إن رأيت الفساد فاعلم أنه نتيجة إهمال وغفلة فاقت كل الحدود .

وما دام الحق سبحانه قال : ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ.. (٤١)﴾ [الروم] فلا بُدَّ أن الفساد جاء من ناحيتهم ، وبالله هل اشتكينا أزمة في الهواء مثلاً ؟ لكن نشتكى تلوث الهواء بما كسبتْ أيدى الناس ، أمّا حين نذهب إلى الخلاء حيث لا يوجد الإنسان ، نجد الهواء نقياً كما خلقه الله .

الحق سبحانه تكفَّل لنا بالغذاء فقال : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] لكنا نشتكى أزمة طعام ، لماذا ؟ لأن الطعام يحتاج إلى عمل ، ونحن تكاسلنا ، وأسأنا التصرُّف فى الكون ، إما بالكسل والخمول عن استخراج خيرات الأرض وأقواتها ، وإما بالأنانية حيث يضنُّ الواجد على غير الواجد .

وقد قرأنا مثلاً أن أمريكا تسكب اللبن فى البحر ، وتعدم الكثير من المحصولات ، وفى العالم أُناس يموتون جوعاً ، إذن : هذه أنانية ، أما التكاسل فقد حدث منا فى الماضى .

وانظر الآن إلى صحرائنا التى كانت جرداء قاحلة ، كيف اخضرت الآن ، وصارت مصدراً للخيرات لما اهتممنا بها ويسَّرنا ملكيتها

للناس ، فإنْ ضنَّتْ الأرض فـى منطقة ما فـقد جعل الله لنا سـعة فى غيـرها ، فالخـالق سبحـانه لم يجعل الأرض لجنس ولا لـوطن ، إنما جعلها مشاعاً لخَلْق الله جميعاً .

واقرأ قـوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء]

ولذلك قلت فى هيـئـة الأمم : إن فى القـرآن آية واحدة ، لو أخـذ العالم بها لضـمنت له الرخاء والاستقرار والأمان ، إنهـا قوله تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴿١٠﴾ ﴾ [الرحمن] فالأرض كل الأرض للأنام كل الأنام ، لكن الواقع خلاف ذلك ، فقد وضعوا للأرض حدوداً ، وأقاموا عليها الحواجز والأسوار ، فإنْ أردتَ التنقّل من قطر إلى آخر تجشَّمت فى سبيل ذلك كثيراً من المشاق فى إجراءات وتأشيرات .. إلخ .

وكانت نتيجة ذلك أن يوجـد فى الكون رجال ازدحموا بلا أرض ، وفى موضع آخـر أرض بلا رجال ، ولو حـدث التكامل بين هذه وتلك لاستقامت الأمور .

إذن : الذين وضـعـوا الحـدود والحـواجـز فى أرض الله أخـذوها لأنفسـهم ، فلم تَعُدْ أرض الله الواسعـة التى تستـقبل خَلْق الله من أى مكان آخر ، إنما جعلوها أرضـهم ، وأخضعوها لقوانينهم هم ، وتعجب حين تتـأمل حدود الدول على الخريطة ، فـهى متداخلة ، فتـرى جزءاً من هذه الدولة يدخل فى نطاق دولة أخـرى ، على شكل مثلث مـثلاً ، أو تمـتـد أرض دولة فـى دولة أخـرى علـى شكل لســان أو مناطق متـعرجة ، فـما دُمْتم قـد وضعتم بينكم حـدوداً ، فلماذا لا تجـعلونها مستقيمة ؟

وكأن واضعى هذه الحـدود أرادوها بُؤراً للخلاف بين الدول ، ولا

يخلو هذا التقسيم من الهوى والعصبيات القبلية والجنسية والقومية والدينية ، لكن لو أخذنا بقول ربنا : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠)﴾ [الرحمن] لما عانينا كل هذه المعاناة .

وقوله تعالى : ﴿كَسَبَتْ.. (٤١)﴾ [الروم] عندنا : كسب واكتسب ، الغالب أن تكون كسب للحسنة ، واكتسب للسيئة ؛ لأن الحسنة تأتي من المؤمن طبيعة بدون تكلُّف أو افتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المجرد (كسب) .

أما السيئة ، فعلى خلاف الطبيعة ، فتحتاج منك إلى تكلُّف وافتعال ، فدلَّ عليها بالفعل المزيد الدال على الافتعال (اكتسب) .

ألاَ ترى أنك في بيتك تنظر إلى زوجتك وبناتك كما تشاء ، أما الأجنبية فإنك تختلس النظرات إليها وتحتال لذلك ؟ فكل حركاتك مفتعلة ، لماذا ؟ لأنك تفعل شيئاً محرماً وممنوعاً ، أما الخير فتصنعه تلقائياً وطبيعياً بلا تكلُّف .

كما أن الحسنة لا تحتاج منك إلى مجهود ، أمَّا السيئة فتحتاج إلى أنْ تُجنِّد لها كل قواك ، وأن تحتاط ، كالذي يسرق مثلاً ، فيحتاج إلى مجهود ، وإلى محاربة لجوارحه ؛ لأنها على الحقيقة تأبى ما يفعل .

ومع ذلك نلحظ قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ .. (٨١)﴾ [البقرة]

فجعل السيئة كَسْباً لا اكتساباً . قالوا : لأن السيئة هنا صارت عادة عنده ، وسهلت عليه حتى صارت أمراً طبيعياً يفعله ولا يبالي كالذي يفعل الحسنة ، وهذا النوع والعياذ بالله أحب السيئة وعشقها ، حتى أصبح يتباهى بها ولا يسترها ويتبجح بفعلها .

وهذا نسميه (فـاقد) ، فقد أصبح الشر والفسـاد حرفة له ، فلا يتأثر به ، ولا يخـجل منه كالذى يقبل الرِّشْوة ، ويـفرح لاستقبـالها ، فإن سألته قال لك : وماذا فيها ؟ أنا لا أسرق الناس .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا .. (٤١) ﴾ [الروم] الإذاقة هنا عقوبة ، لكنها عقوبة الإصـلاح كما تعاقب ولدك وتضر به حرصاً عليه ، وسبق أن قلنا : إنه لا ينبغى أن نفصل الحدث عن فاعله ، فقد يعتدى ولد على ولدك ، فيـجرحه فتذهب به للطبيب ، فيـجرحه جرحاً أبلغ ، لكن هذا جرح المعتدى ، وهذا جرح المداوى .

وحين يُذيـق الله الإنسانَ بعض ما قـدَّمت يداه يوقظه من غـفلته ، ويُنبِّه فـيه الفطرة الإيمـانية ، فيـحتاط للأمـر ولا يهمل ولا يقـصر ، وتظل عنده هذه اليقظة الإيمـانية بمقـدار وَعْيه الإيمانى ، فـواحد يظلّ يقظاً شهراً ، ثم يعود إلى ما كان عليه ، وآخر يظل سنة ، وآخر يظل عمره كله لا تنتابه غفلة .

وقد أذاق اللهُ أهلَ مكة عـاقبة كـفرهم حـتى جاعوا ولم يجـدوا ما يأكلونه إلا دَمَ الإبل المخلوط بوبرها ، وهو العلْهز .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) ﴾ [الروم] لأن الكلام هنا فى الدنيا ، وهى ليـستْ دار جزاء ، فالحـق يُذيقهم بعض أعـمالهم ليلتـفتـوا إليه سبـحانه ، ويتوبوا ويعودوا إلى حـظيرة الإيمان ؛ لأنهم عبـيده ، وهو سبحانه أرحم بهم من الوالدة بولدها .

والحق سبـحانه ساعـة يقول ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ .. (٤١) ﴾ [الروم] أى : على عهد رسول الله ﷺ ليُبيِّن لنا أن الرسل إنما جاءوا لإنقاذ البشرية من هذا الفسـاد ، لكن ما دام الأمر عُلِّل فالأمـر يدور مع العلة وجوداً وعدماً ، فكلمـا ظهر الفساد حلَّتْ العقـوبة ، فخذوها فى الكون آية من

آيات الله إلى قيام الساعة .

فظهر الفساد قديماً ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

لكن هذا الأخْذ كان قبل سيدنا رسول الله فى الأمم السابقة ، وكان هلاك استئصال ؛ لأن الرسل السابقين لم يُكلَّفوا بالمحاربة لأجل نَشْر دعوتهم ، فما عليهم إلا نشر الدين وتبليغه ، مع التأييد بالمعجزات ، فإنْ تأبَّى عليهم أقوامهم تولَّى الحق سبحانه عقابهم ، أما أمة محمد ﷺ فقد أكرمها الله بألاَّ يعاقبها بعذاب الاستئصال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

ثم سيظهر الفساد حديثاً وسيحدث العقاب . إذن : ليست الأمة الإسلامية بِدَعاً فى هذه المسألة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ (٤٢) ﴾

السير : الانتقال من حيز مكانى إلى حيز آخر ، وسبق أنْ قلنا : إن النظرة السطحية فى ظاهر الأمر أن السير يكون على الأرض لا فيها ؛ لأننا نسكن على الأرض لا فيها ، لكن الحق سبحانه يُبصرنا بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ .. (٤٢) ﴾ [الروم] أن الأرض ليست هى اليابسة والماء على سطح الكرة الأرضية ، أما الأرض فتشمل غلافها